الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 17) – 1994 – 1414

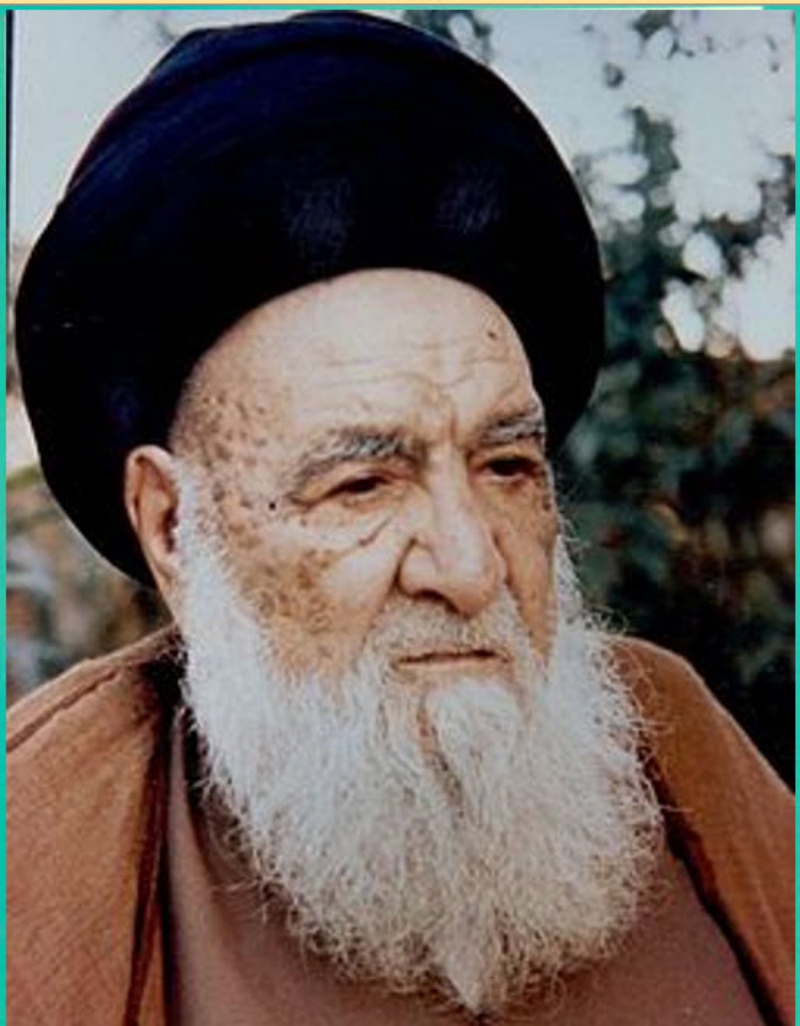

آرشيو مخطوطات
خزانة رخامي دار الحديث
٢١٢٣٠

الإصلاح

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

١٧

ترسل جميع المراسلات والطلبات باسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

«مؤسسة مسجلة في المملكة الهولندية»

KUFA ACADEMY
POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
[HOLLAND] - TEL, FAX: 01860 - 20712

الاشتراك السنوي ١٠٠ دولار امريكي

آفاق وافكار حول المرجعية الدينية بعد رحيل الامام الخوئي

السيد عبد المجيد الخوئي

اثارت قضية وفاة الامام الراحل السيد ابو القاسم الموسوي الخوئي (قد) تساؤلات كثيرة حول مستقبل الحوزة العلمية الدينية والمرجعية في التقليد عند ملايين المسلمين الشيعة وخصوصاً مستقبل العلاقة الدينية العليا وبين حكومات الدول ذات الكثافة السكانية العالية للمسلمين الشيعة ، وعلى وجه التحديد تأثير الدولة في كل من ايران والعراق على المرجعية الدينية ومستقبلها وتحديد من سيخلف الامام في هذا المنصب الالهي الخطير ومستقبل مدينة النجف الاشرف ذات المدرسة الالفية في تاريخ الاسلام والشيعة على وجه الخصوص .

وقد اثارت وفاة الامام الخوئي الشكوك حول امكانية بقاء الحوزة العلمية الدينية محافظة على استقلاليتها امام تزايد نفوذ وتأثير الحكومة من جهة وازدياد نفوذ المؤسسة الدينية في الشؤون السياسية من جهة أخرى .

فلقد مثل الامام الخوئي المدرسة الدينية ، المعنية بالفكر والاجتهاد ورعاية المصالح العامة للامة حسب ظروف كل منطقة بحدها دون الخوض في الشؤون التنفيذية المعنية بالسياسة والدولة . واستطاع الامام الراحل في حياته ان ينقل عمل الحوزة من شكله الاولي التقليدي المعروف وادخل الاسلوب العصري في عمل المؤسسة الدينية حيث امر بتأسيس مؤسسة عالمية ذات منفحة عامة بنشر الثقافة الاسلامية الصحيحة ورفع مستوى الوعي بين كافة افراد الامة فتم انشاء (مؤسسة الامام الخوئي الخيرية) ومقرها الرئيسي في لندن وفروعها منتشرة في كثير من البلدان الاوربية والاسلامية وقد اناط بها العديد من المهمات التربوية والتعليمية والدينية في مختلف العواصم .

وتمكن الامام عبر مدرسته الهادئة والدؤوبة في العمل العلمي والاجتماعي العديد من الاشكالات التي لحقت بصورة المسلمين الشيعة على الصعدين الاسلامي والعالمي . وبذلك مثل الامام الخوئي التراث التاريخي لمراجع التقليد الشيعة المتمثل بالمحافظة على التراث والاجتهاد في مسائل الدين دون الخوض في الامور السياسية التنفيذية لشؤون الدولة الا ما كان يتعلق منها بالحفاظ على كيان او هوية الطائفة في الظروف الحرجة جداً او المسائل الاسلامية العامة .

كما سبق في ذلك محافظة العلماء الشيعة في العراق على دورهم الفكري والعلمي لعدة قرون ولم يتأثروا بالتقلبات السياسية في ولاية بغداد والبصرة التابعة للدولة العثمانية ولم ينجروا الى الصراعات الدموية بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية على أرض العراق ، الا أن الجمهورية الاسلامية في ايران قد اعتمدت اثناء عهد الامام الخميني (قده) محاولة الجمع بين الولاية والفقاهة وتولى تنفيذ نظام الدولة من قبل المرجع مباشرة . وهي بدورها لم تستقر ولم تستمر بعد وفاة الامام الخميني مباشرة ، وازدهرت الحوزات العلمية في نشاطاتها من جديد وطبعت اكثر من ثلاثين رسالة عملية من قبل العلماء محاولة لكسب المقلدين واعلان المرجعية من قبل مؤلفيها ولم يحصل تسليم

الدولة الى المرجع المقلد الاعلى بعد وفاته . وفي مقابل ذلك تعرضت الجامعة العلمية في النجف الاشرف في العراق الى خطر الابادة في السنين الاخيرة من حياة الامام الخوئي (قده) ولا يزال قسم كبير من كبار اساتذة الحوزة رهن الاعتقال .

اشكالية العلاقة بين الحكام ورجال الدين في الاسلام بنحو عام

لم يعانِ المسلمون في تاريخهم الطويل من الصراع بين المؤسسات الدينية المتمثلة بالمشايخ وعلماء الدين ومراكز الافتاء وبين مؤسسات الحكم والدولة ، بنفس الطريقة التي عانت منها اوروبا في الصراع الطويل بين الكنيسة والدولة ، فقد عاشت اوروبا فترة صراع دموي عنيف دام مئات السنين بسبب تسلط رجال الكنيسة على السلطة السياسية وكفاح الهيئات السياسية والمدنية للتخلص من نفوذ الكنيسة الى أن انتهت الازمة بالمشروع العلماني القائم على الفصل بين الدين والدولة وكان احد الاسباب الفاعلة هو شدة نفور الجماهير من تصرفات الكنيسة مما ادى الى موت الدين واحياء السياسة وابقاء ابنية الكنائس كمتاحف اثرية للذكرى و التاريخ .

اما العالم الاسلامي ولمئات السنين فقد عانى من اشكالية اخرى ، عكس ما كانت الحالة في اوروبا وسببها تسلط الدولة والحكام على المؤسسات الدينية وتدخل الخلفاء في شؤون العلم والدين لاغراض سياسية وتسخيرهم لمن سموا بـ (وعاظ السلاطين) ونشوء طبقة علماء البلاط .

فقد انصهرت الامم والشعوب في بوتقة الاسلام وقبلت الامة المسلمةآنذاك بمبدا الولاية والحكم على اساس القرآن .

ولذا سعى المتنافسون على السلطة وبشكل دائم للحصول على تزكية دينية او عدم الممانعة ـ على الاقل ـ من المؤسسة الدينية لتسهيل وصولهم الى الحكم وتمكنهم من الاستمرار في السلطة ولم يقف الحكام عند هذا الحد في استخدام المؤسسة الدينية لاغراضهم السياسية بل هناك مئات الشواهد التاريخية والعديد من الشواهد المعاصرة عن استدراج الحكام بعض المشايخ ودور الافتاء لتأييد اعمال الحاكمين الظالمة احياناً وللمصادقة على الاعمال المناقضة للدين ولمصالح المسلمين احياناً اخرى .

وقد اضعف تدخل الدولة في شؤون الدين من مصداقية العلماء عند جمهور المسلمين ، ولا يخلو تاريخ المسلمين على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم وشخصياتهم من مواقف رائعة قاومت ظاهرة تدخل الحكام في شؤون الافتاء الديني ورفضت استبدال دور الرقيب والمرشد للامة بدور التابع المسير من قبل السلطة .

موقف مراجع المسلمين الشيعة

الا أن الحوزة الدينية للمسلمين الشيعة قد تمتعت بدرجة عالية من الاستقلالية عن نفوذ الخلفاء والولاة والحكام وتميزت بذلك عن بقية مراكز الافتاء الديني عند عموم المسلمين . وقد ساهمت عدة عوامل في بلورة استقلالية الحوزة العلمية الدينية عن سلطة الحكام ، منها اسباب مذهبية وعقائدية تعود إلى موقف الائمة من اهل البيت عليهم السلام بالاضافة الى عوامل تاريخية وعرفية وتقليدية . وبسبب هذه الاستقلالية تمكن مراجع الشيعة العظام طيلة اكثر من الف عام من المحافظة على ممارسة دورهم الرئيسي في تطوير التراث الفكري والعلمي والديني رغم التقلبات السياسية في الحكومات ، وقد تجنبوا التصدي المباشر لشؤون الحكم والسياسة رغم كثرة المغريات وشدة الضغوط وتحمل الويلات واهتموا بدور المرشد للامة والمراقب والموّجه لشؤون المسلمين عامة . وتدخلوا سياسياً في الحالات الاستثنائية التي تعرضت فيها بيضة الاسلام الى الخطر ومنعاً لاراقة الدماء وحفظاً للمصالح العامة كما اشرنا .

ومن هذه الحالات غزو الكفار لبلاد المسلمين متمثلة في الغزو الصهيوني لفلسطين ومنها انتشار المبادىء الضالة كما حدث إبان انتشار افكار ماركس ولينين وما تعرض له لبنان من اقتتال وتشتيت بين الطوئف المختلفة وحتى فيما بين اتباع الدين والمذهب الواحد وكذلك أوضاع افغانستان والغزو السوفيتي وثورة ايران وغزو الكويت وانتفاضة الشعب العراقي وغيرها من الامور المهمة التي تمس صميم الاسلام والامة ، وكان للامام الخوئي في تلك الاوضاع مواقفه المشهودة والمشهورة وقد عبر عنها بحكمة وحنكة قلما ظهر مثيلها لعلماء آخرين .

ان فقدان الامام الخوئي (قده) يمس صميم المؤسسة الدينية ويؤثر على مستقبلها بشكل ملحوظ ـ لا محالة ـ ولاسباب كثيرة ، منها ما يتعلق بتحديد هوية من سيخلفه في منصب المرجعية الدينية العليا ومنها ما يتعلق بتحديد مكان المرجعية وخصوصاً جامعة النجف الدينية ، فلا يوجد في تراث المسلمين الشيعة ما يوجب حصر المرجعية بمكان او بلد معين ، فقد انتقلت المرجعية من بغداد الى النجف والحلة وكربلاء وسامراء في العراق وتمركزت احياناً في قم المقدسة في ايران حسب ما تسمح به الظروف وماتصل له الحوزة العلمية من مكانه عالية وبروز اعلم المجتهدين في كل عصر في ذلك المكان .

ولاشك في ان وفاة الامام الخوئي (قده) قد اضعفت دور جامعة النجف وحوزتها العلمية الدينية في زعامة المسلمين الشيعة رغم وجود بعض المجتهدين المرموقين والعلماء النابغين من تلامذته .

فقد اصر الامام الراحل (قده) على البقاء في مدينة النجف الاشرف رغم المضايقات المستمرة له ولعلماء المسلمين الشيعة فيها من جهة ، ولم يختر الهجرة الى ايران رغم سهولة العيش وتعاطف الامة هناك او اي مكان آخر بامكانه اقامة صرحه العظيم فيه .

فالكوفة هي العاصمة التاريخية لخلافة الامام علي بن أبي طالب عليه السلام وتميزت مدينة النجف بجامعتها العلمية المشهورة حيث مرقد الامام علي (ع) ، وتجاوز عمرها اكثر من الف عام فكان من الطبيعي ان تبقى الحوزة العلمية الدينية والزعامة الروحية للمسلمين الشيعة في ارض الرافدين .

والعراق الذي مثل ولا يزال يمثل التراث التاريخي والتقليدي للمسلمين الشيعة وجذورهم العربية والاسلامية والتي لم تنقطع منذ بدء الاسلام ودخوله العراق تعود إلى فترة حكم الامام علي (ع) . ولم يخرج ائمة اهلِ البيت عليهم السلام من اولاد الحسين (ع) عن ارض العراق والجزيرة العربية رغم شدة الاضطهاد الذي تعرضوا له وعاشوا ودفنوا فيها باستثناء الامام الرضا (ع) المدفون في ارض خراسان ـ ايران .

واستمر اصرار الامام الخوئي (قده) على ابقاء الحوزة العلمية في معقلها الاصيل في مدينة النجف الاشرف رغم المضايقات وتقلص عدد طلابها من ٢٠ الف قبل مجيء الحزب الحاكم حالياً في العراق الى اقل من ١٠٠ عالم دين بعد ان قمعت الانتفاضة في العام الماضي . ولايزال اكثر من ١٠٠ عالم دين من الاساتذة والمجتهدين والعلماء المرموقين في النجف ـ اسرى عند الحكومة العراقية ولاتزال الضغوط والمفاوضات الدولية قائمة للافراج عنهم ـ يؤمل اطلاق سراحهم وافساح المجال لحرية النشاط الديني وتنشيط التدريس وحلقات البحوث في النجف الاشرف لاحياء دورها من جديد .

ومن اهم وابرز العلماء المعاصرين في مدينة النجف الاشرف حالياً هو اية الله العظمى السيد علي السيستاني (دام ظله) والذي قضى سنيه بالعمل الدؤوب والبحث والدرس والتحقيق تحت اشراف استاذه الفقيد الامام الراحل وهو الذي خلفه الامام الراحل لاقامة صلاة الجماعة في جامعه المعروف ـ جامع

الخضراء ـ منذ سنوات حيث كان يؤم الناس فيه كما انه هو الذي صلى على جثمان الامام الراحل (قده) .

بينما يعرف سماحة آية الله العظمى السيد محمد رضا الكلپايگاني (دام ظله) ، المقيم في ايران ـ قم المقدسة ـ بأقدميته على معظم المجتهدين المعاصرين وعراقته .

هذا مع الاخذ بعين الاعتبار وجود عشرات العلماء المجتهدين الافاضل الذين تربوا وتخرجوا من مدرسة الامام الراحل (قده) طيلة العقود الستة الماضية والذين هم من ابرز اساتذة الحوزات العلمية الدينية سواء في قم المقدسة او النجف الاشرف .

لقد ترك الفقيد الراحل (قده) فراغاً واضحاً في الحقل العلمي والديني وزعامة المؤمنين في العالم ، فقد امضى اكثر من ستين عاماً مشتغلاً في بحوث الاجتهاد والتحقيق ، داخل الحوزة العلمية وتخرج على يده آلاف التلاميذ منهم المئات من الاساتذة والمجتهدين والعلماء المنتشرين في كافة بقاع العالم وامتد عمره الشريف قرابة قرن شهد فيه اهم الاحداث في القرن العشرين للميلاد . فقد عاصر (رضوان الله عليه) الدولة العثمانية والدولة القاجارية وشارك في كفاح مراجع الدين في العراق وايران لحماية الدين على اختلاف مناهجهم في مواجهة التحديات الفكرية والحضارية والتقلبات السياسية .

كما شهد انهيار الدولة العثمانية امام الغزو الاوروبي وقيام وسقوط الحكم البهلوي في ايران وعاصر ثورة النجف وثورة العشرين في العراق والثورة الدستورية في ايران واخيراً قيام ثورة الشعب المسلم وانتصارها فيها وتسلم العلماء مقاليد السلطة .

وقد اختار الفقيد الراحل دوراً علمياً وفكرياً وسعى من اجل الحفاظ على استقلالية المؤسسة الدينية وكرس تراث ائمة وعلماء المسلمين الشيعة في عدم خضوع علمائهم للحكم الجائر وتقديم مهمة اغناء الفكر والتراث على مهمة التصدي لشؤون الدولة والسياسة .

وقد تعرضت هذه المدرسة العريقة ـ النجف الاشرف ـ الى اصعب الظروف واحلكها بدات قبيل وفاة المرجع الديني الاعلى آية الله العظمى السيد محسن الحكيم (قده) في اواخر الستينات وبداية السبعينات وعندها انفرد الامام الراحل بتولي مرجعية المسلمين وزعامتها الدينية دون منازع.

فقد بدأت فيها سلطة حزب البعث الحاكم في العراق مهمة ضرب التيار الديني واذابة المؤسسة الدينية المتمثلة بالحوزة العلمية في النجف الاشرف وعلمائها المنتشرين في كل نقطةٍ من البلاد ـ الوكلاء ـ وقامت بتهجير الآلاف من طلبة العلوم الدينية في العراق ومن مختلف الجنسيات ثم شنت حملات اعتقال واسعة بحجة منع النشاط السياسي لبعض رجال الدين واعدمت العلماء وسجنت الآخرين وتحدت المؤسسة الدينية في النجف الاشرف في العمل على سحق ومحو تراثها وتعرضت مدرسة الامام الخوئي (قده) إلى مزيد من الامتحانات الصعبة اثناء الثورة الاسلامية في إيران وطيلة مدة الحرب العراقية الإيرانية بالإضافة إلى اهتمامات سماحته (قده) بموضوع افغانستان والغزو السوفييتي لتلك البلاد ودعم المجاهدين الافغان واسنادهم وكذلك الاوضاع المؤلمة في فلسطين وماجرى خلال المدة المذكورة من مآسي في لبنان وكان آخرها موضوع غزو الكويت حيث وقف سماحته موقفاً مشرفاً لا اظنني بحاجة هنا إلى ذكر تفاصيله إلى ان قامت انتفاضة الشعب العراقي المسلم وماجرى عليه من خلالها وبعد سحقها.

إلا انه ورغم ذلك كله فلقد التزم الامام الراحل (قده) دوره العلمي والديني امام الضغوط والتحديات وجسد مدرسة واضحة المعالم تتميز عن غيرها.

وتعرض الامام الفقيد إلى تحديات كبيرة تمثلت بضغوط وتهديدات، تجاوزت شخصه لتشمل اصل وجود الكيان في الحوزة العلمية في

النجف الاشرف والاغراءات السياسية وسط اجواء الاضطراب والاختلاف السياسي في المنطقة إلا ان الامام الخوئي (قده) المقيم في العراق لم ينجر إلى مواجهة مع إيران كما لم ينجر ايضاً إلى الخوض في المهام السياسية والتنفيذية المباشرة، مشيراً إلى ضرورة الاختصاص وتوزيع الادوار ليستقيم امر الامة وقد تمكن بحكمته ان يتزعم الامة الاسلامية الشيعية لفترة اكثر من عقدين من الزمن دون منازع ولاخلاف. واما الآن وقد رحل الى الرفيق الأعلى والأمة تتجاذبها الرياح يميناً وشمالاً وقد بدأ العالم بأسره الاسلامي وغيره عبر وسائل الاعلام تنبأ مع خبر وفاة هذا العملاق اخباراً وتحليلاتٍ حول المستقبل والآن وقد خلت الساحة العلمية في اوساط الحوزات الدينية من اكبر واعظم زعمائها، حيث ان الفرق بينه وبين كل اولئك الذين يمكن لهم ان يتصدوا لمثل هذا المنصب هو فرق شاسع وبعيد جداً مما يحتاج إلى زمن ليس بالقليل حتى يبرز بعض المشار إليهم بالبنان ويستقر امر المرجعية العليا. وخلال هذه الفترة كما هو طبيعي في كل مرحلة فراغ ان يحاول البروز مع المحقين اهل الباطل لتشويه الصورة واظهار الخلاف لنيل مآربهم وينبري كل ذي مصلحة بجر القلم لما يشتهيه ويكتب كل كاتب مايتصوره غريباً او خفياً على الجمهور ليكسب شهرة او سمعة سواء اكان صحيحاً أم باطلاً وكما يقول العرب (خلى لك الجو فبيضي واصفري).

ومن تلكم الامور بعض ماجاء في عنوان ومقال(*) الاخ الدكتور فهمي هويدي من استقرار المرجعية وما تضمنها من مواضيع والذي اظن انه قد اخذ بعضاً منها من مقال(**) الاخ الدكتور جعفر رائد الذي هو بدوره اختلقها من دون اساس حول توقيع الامام الراحل (قده) معاهدة الاتفاق مع ملك العراق بعد تهجير العلماء، علماً بأنها عارية من الصحة تماماً حيث كان عمر الامام الراحل آنذاك لايتجاوز الـ ٢١ عاماً ولم يكن عندها سوى طالب علم فاضل وهو بعيد عن مرحلة المراجع العظام الذين تعرضوا لتلك الواقعة وجرى ماجرى فيها وكذلك الكثير مما كتب ونشر من اخبار وتحليلات حول الاوضاع القائمة والمستقبلية، منها ترويج بعض الصحف لاشخاص مجهولي الحال بعنوان الدعاية الرخيصة او الانتهازية او طرح افكار حول نظام المرجعية القادمة ومنها مايطرقه البعض من تشكيل هيئة مرجعية تتشكل من عدة افراد ليشتغل كل في حقل خاص بدل الزعيم الواحد... وغيرها من الافكار التي تدل على عدم فهمهم لحقيقة المرجعية واساسها.

والحق ان كل هذه الامور من الطبيعي بروزها عند فقدان زعيم ما في اي نظام او مؤسسة، إلا أن ما اثبته تاريخ المرجعية الرشيدة عبر القرون عند المسلمين الشيعة الامامية قد تجاوز كل هذه المراحل والاجواء وبقيت المرجعية مستقلة ثابتة وفق اصولها العلمية والعملية المتجسدة في شخص الزعيم اللائق الاعلم الجامع للشرائط الدينية الذى يكون نائباً عن الامام الغائب ومرجعاً أعلى يرجع إليه ابناء الأمة في مسائلهم الشرعية وامورهم الدنيوية.

وهذا الامر المهم يتطلب كما اشرنا إلى وقت قد يطول... حتى الاستقرار والتعيين في شخص الزعيم الواحد.

---

* جريدة الشرق الاوسط تاريخ ١٩٩٢/٨/١٧

** جريدة الشرق الاوسط تاريخ ١٩٩٢/٨/١٢